استقلال مصر الاقتصادى

على ذكرى عيد بنك مصر

بقلم الاقتصادى المحقق

الأستاذ عبد الحليم إلياس نصير المحامى

لبى دعوة مجلس إدارة بنك مصر للاحتفال بعيده الخامس عشر كثير من عظماء مصر وهيئاتها ، وكانت فرصته لعرض أعمال بنك مصر وشركاته فى حفلة حافلة بجمهور منتخب من سكان البلاد بين ومثنين وأجانب ، وملأت أنهر الصحف بوصف المهرجان وبالخطب والقصائد وأنباء الاحتفالات التى أقيمت فى العاصمة والاسكندرية وبعض الأقاليم بهذه المناسبة . كما عقد بعض فضلاء الكتاب الفصول فى تقريظ أعمال بنك مصر والإشادة برجاله ، أثابهم الله عن بكلماتهم الطيبة أحسن المثوبة .

ولقد أثارت هذه الذكرى فى نفسنا بعض الخواطر الوطنية ورأى من الانصاف لمصر والتاريخ ولأبناء هذا الجيل أن نتحدث بها من هذا المنبر العلمى إذ تلبى الدعوة إلى الكتابة (فى صحيفة التعليم الأزهرى) فى موضوع عيد بنك مصر .

لما تفجرت ينابيع النهضة المصرية فى عام ١٩١٩ امتد أفق آمال المصريين إلى تحقيق المثل العليا فى الاستقلال المعنوى والمادى . فكانت تسمع الأحاديث الوطنية تجرى بشتى الأمانى وتلفت البلاد الكمال على أيدى بنيها فيصبح التاجر المصرى عنوان الاستقلال التجارى ، ويضحى الصانع المصرى عنوان الاستقلال الصناعى ، وتصبح البنوك المصرية عنوان الاستقلال المالى ، ويغدو المصرى مثالا فى الاستقلال الاقتصادى . ولقد أقبلت النهضة تحمل بين جناحيها عناصر النمو والنجاح فى تربة صالحة وجو مؤات .

أقبلت نهضة سنة ١٩١٩ وأبناء البلاد يحيطون بأدواء بلادهم وينادى الكل بالدواء ، فما لأحد أن يدعى التفرد بمعرفة الداء أو الالمام بالدواء : كنت تسمع من الطالب فى مدرسته ومن المعلم على منبر الدرس ومن رب الأسرة فى عرصة الدار وفى كل مجتمع وناد ، تسمع الكل

يشكو من خلو البلاد من الشركات المصرية ومن قعود الأمة عند طور الفطرة فى الأنتاج الزراعى دون التقدم إلى الأنتاج الصناعى والنهوض التجارى للأفراد والجماعات .

وكان المال الذى يجود به الفلاح والتاجر والزارع والأفندى والبك والباشا إما من عطاء الأرض وإما من خزانة الحكومة (إلى الموظفين) وإما قرض من مردة المرابين والبنوك الأجنبية .

آلامنا وأمانينا

ونادت النهضة يومئذ بأن لا تعاملوا إلا المصريين ، فكان على هؤلاء المصريين أن يلبوا حاجة الجمهور حتى يكون من المنشآت المصرية غنى عن مثيلاتها الأجنبية ، فهذا هو المنطق والمعقول . فأن الوطنية ليست فى ألفاظ جوفاء وأحلام هوجاء ، ولكنها فى العمل والأنتاج والابتكار وسد حاجة المجموع وإسعاده . كانت البلاد فى فراغ تام من البنوك المصرية إذا استثنينا بعض البيوت المالية المحدودة مثل بنك الرجل المالى الجليل «حسن سعيد باشا» الذى أصبح الآن مديراً لبنك الألمانى المصرى (درسدنر) ، وغيره من بيوت تجار الماليين . كذا بعض بيوت لأخواننا الأسرائيليين من رعايا الحكومة المصرية .

وكان المصرى إذا احتاج إلى المال الأفندى رهن بيته إلى بنك عقارى أجنبى ، أو رهن أرضه إلى بنك عقارى زراعى أو رهن حلى زوجته أو ما يحمل من أوراق مالية ، كل ذلك بفوائد باهظة وتكاليف فاحشة ، فكان الدواء الذى تنشده البلاد هو سد كل هذا النقص ، وكان المطلوب أن تكون لمصر بنوك مصرية عقارية وتجارية وزراعية وصناعية ، وشركات تملأ نواحى النشاط الاقتصادى وتقوم على استثمار مرافق البلاد مستعينة بالعلم ومؤتمة بتجارب الأمم التى تقدمتنا ومهتدية بذوى الخبرة والاختصاص من الأجانب ليكون لنا منهم معلمون لا سادة .

ناحية ناجحة

وتقدمت الصفوف جماعة بنك مصر فى عام ١٩٢٠ وحملت لواء الأمانى الاقتصادية ، فأنشأت شركة مالية برأس مال قدره ثمانون ألف جنيه ، وسميت «بنك مصر» ونما رأس مالها إلى مليون جنيه ، وأنشأت على مدى الوقت بعض الشركات الصناعية ، وقد شغلت هذه المنشآت فراغا كان موجوداً وسارت بثبات وقد أسعدها الحظ بأنها أسست جميعا والبلاد فى يسر ورخاء والذهب الوهاج يملأ الدور . ولكن أعذا البنك الموفق هو كل ما كانت

تنادى به البلاد فى ثورتها ؟ كلا !

ولو أنا أنشأنا بنكا عقاريا إلى جانب بنك مصر لوفى الآن الثروة الزراعية وحل محل البنوك والمرابين بعد إذ أمست زبدة الأراضى المصرية فى قبضة الأجانب، ولوفى البلاد والبيوت العامرة من هول البيوع الجبرية .

ولو أنا أنشأنا بنكا للصناعة إلى جانب بنك مصر لنهض بمرافق البلاد ولأقام فى كل قرية صناعة تنفع الناس وتغنى الملايين لا الألوف فقط .

والذى نخشى منه أن نقنع الآن بالأساس التجارى الذى قام عليه بنك مصر فيشغل الناس عن نواحى النهوض الأخرى . وعندنا أنه كان ينبغى منذ الساعة الأولى أن تنشأ المؤسسات الاقتصادية على أساس حاجة البلاد ، وإذا قيل إن الظرف محال وافقنا تماما .

التعمير والإنشاء

ولو أن الذين حملوا راية النهضة الاقتصادية واستأثروا بثقة الجمهور وثمراته قسموا عملهم إلى قسمين (الأول) يعمل على تمصير الشركات الأجنبية بالدعوة إلى المساهمة فيها (والثانى) بالعمل على إنشاء المؤسسات التى تحتاجها البلاد . لوفعلوا ذلك لوجهوا أموال الشعب خير توجيه ولأصبح المصريون الآن ولهم السيطرة على الشركات الاجنبية والبنوك . ولأصابت البلاد العصفورين بحجر واحد . والخلاصة أن الأزمة العالمية قد كرثت مصر منذ خمسة أعوام فظهر أن مالنا وأرضنا وتجارتنا جميعا بيد الأجانب . وظهر أن البلاد لم تعمل شيئا مذكوراً فى سبيل استقلالها الاقتصادى .

فعلى البلاد أن تفكر فى هذه الحقائق حتى لاتتوا كل ، فليفكر كل مصرى فى حال البلاد المالى والاقتصادى والزراعى والتجارى والصناعى ، وليعمل كل على إصلاح الخطأ وإكمال النقص والأخذ بنصر العاملين وتدبر رأى المفكرين . وإلى الأمام فأن الأمم الناهضة لاتتوا كل ولا تنام ولا تستكين !

عبد الحليم الياس نصير

الدكتور طه حسين

للاستاذ حسنين حسن مخلوف

المدرس بمدرسة المعلمين بطنطا

طالما حدثني بعض رجال التعليم الأزاهر عن خدمات الدكتور طه حسين لقضيتهم لمحض المروءة والأنسانية وحب الخير لطائفة كبيرة تؤدى عملا لا شك أنه عظيم . والناس في مصر درجوا في مسعاهم أن يلبسوا الغرض ثوب المروءة ويمدوها يداً عند صديق أو قريب أملا في المنفعة العاجلة أو الآجلة . فلم أكن أعجب لهذا الخلق النبيل عند الدكتور النابغة لأني سمعت كثيراً عن أخذه بيد الناس في الجامعة المصرية فربما سدت السبل في وجه طالب يريد دخول الجامعة ودون

الدخول تحفى أقدام عظماء وكبراء كما هي العادة في مصر ، فما هو إلا أن يطرق باب الدكتور طه حسين فيرى منه حنان الأب بابنه لغير شيء إلا أن الفضل من سجاياه ، ولا غرو فالشجاعة ملموسة في مظاهر حياته ، والمروءة أخت الشجاعة ، والأريحية لون من ألوان كرم النفس . وما زال في مصر ناس أعدوا نفسهم ليستظل بظلهم من لا يرى كبراء البلد في ترفيه عيشهم مصلحة شخصية مباشرة ، فالحمد لله على ذلك .

على أن رجال التعليم الأزاهر قد تنوّروا بصيصاً من الأمل أخذ يكبر شيئا فشيئا في عهد وزير المعارف الشاب سعادة نجيب الهلالي بك الذي صار لكل طائفة في وزارة المعارف نصيب من شريف عنايته إذ كبر على عينه أن يدأب رجال التعليم عامة على تنقيف الناشئة ثم لا يكون حظهم حظ الموظفين في الوزارات الأخرى وجلهم يقضّون أوقاتهم على مكاتبهم ، والمدرس يذرع أرض الفصل طول النهار فهو يهب للعلم جسده وعقله وعصارة قلبه ، لذلك نأمل أن يكون رجال التعليم الأزاهر من أوفر الناس نصيبا بعناية الوزير الجليل .

أريد أن أكتب عن الدكتور طه حسين بحرية واستقلال رأي فتتشعب عليّ نواحيه فمن أي جهاته أكتب عنه ؟ أمن ناحية أدبه وقد نال قرابة ربع قرن يدرس الأدب ويكتب في الصحف ويستثير حماسة الأدباء والنقاد ، فتهم المعجب به إعجابا ملك عليه حواسه ، والمزور

عنه ازوراراً شديداً . أم من ناحية نقده للأدب وتحليله للنفوس واستكناه حقائق الأشياء، حتى لقد تقرأ الكتاب ، وقد لا تلاحظ عليه شيئاً فأذا تناوله الدكتور حلله تحليلا دقيقاً وأبرز للقارىء صورة من روح الكاتب وأطلعه على ضعفه أو قوته وجماله أو قبحه .

أرأيت إلى الهواء يستنشقه الأنسان ثم لا يتعدى ، فأذا حلله العالم الطبعى إلى عناصره أثار العجب فى نفس الأنسان من هذه العوالم التى يتألف منها الهواء ، فكذلك يتناول أديباً أو شاعراً أو مؤلفاً ثم يفيض على السامع روحاً من روحه وجاذبية فى الحديث أو فى الكتابة فيجذبه بسحره وبحلاوة منطقه وترتيب أفكاره وتسلسل عباراته فيخرجه إلى عالم العقل والروح ، ثم يطلعه على أسرار العلوم والآداب والفلسفات فلا ينتهى من الاستماع أو القراءة إلا هتف بقوله تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وقد تستمع إلى حديثه فى الفلسفة فتنسى أنها نوع من العلوم العويصة التى تكد الذهن وتعنى العقل وتبعث السآمة والملل ، فهو كفيل أن ينزلها من سمائها ولا يزال بها يربت على كتفها حتى تلتذها المسامع وتستسيغها العقول ، وكأنها حديث العاشق الولهان يبث شجوه إلى من أحرقهم جوى العشق فينظم أفئدتهم فؤاداً فؤاداً . فالدكتور طه فى نظرى رجل أنضجته الأيام وصقلته الحوادث وقوّمته صروف الزمان ؛ أو تستطيع أن تقول: إنه شغل الرأى العام بنفسه أمداً طويلا .. واستمع لنقده إياه ، وكان من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ فمال واعتدل ونامل ونوصل وأصابته الجراح ، ولكنها لم تنحته ؛ ثم قام مصفى النفس سليم الوجدان قوى العقل ؛ فصار محبباً إلى كل نفس ورضى عنه من كان عنه مزوراً ، ذلك أنه جندى باسل والناس فى مصر لم يألفوا فيمن يعيش من رزق الحكومة أن يكون جنديا باسلا

إلف هذا الهواء أوقع فى الانفس أن الحمام مر المذاق

وإذا قرأ القارىء قصصه فى « هامش السيرة النبوية » أوكتاب « الأيام » أو قصته الأخيرة « أديب » أخذ بليه تحليل الأشخاص ودقة التصوير للحياة الاجتماعية ، فهو مصور ماهر ، ومحدث بارع ، وكاتب قدير .

وإذا تناول بالنقد قصيدة من القصائد وشاء أن يرفع قائلها إلى السماك فعل ، أو ينزل به إلى الحضيض جعل القراء يصدرون ويوردون عن قوله من حيث يشعرون أو لا يشعرون بتأثير السحر وحلاوة المنطق والتفنن فى الأساليب .

وليس بدعا أن يكون الدكتور طه ناقداً لاذعا ، فقد كان أستاذه سيد بن على المرصفى شديد البصر والنفاذ فى أعماق الأساليب العربية وقل أن سلم من لسانه أديب قديم ، فلقد

سمعته يدرس «الأمالى» لطلبة الأزهر ثم يحمل حملات قاسية على أبى على القالى مؤلفها ، ولم يسلم منه المبرّد فى الكامل على جلالة قدره ؛ ثم قد يعرض للعلماء الذين يلقون الدروس على مقربة منه فيتناولهم بلسانه الحادّ ، وتهكّمه القاتل ، ودقّته فى تصوير السخرية .

بوساطة هذا الرجل الأديب الفذ فى الأزهر — طيّب الله ثراه — درس الدكتور طه ، ثم اتصل بكتاب الصحف وطبقة المجددين قبل الحرب العظمى ؛ وكان يزعمهم لطفى بك السيد مدير الجامعة المصرية الآن فوجه عنايتهم لدراسة الفلسفة ونقد الحياة المصرية فى صحيفته (الجريدة) اليومية التى كان يتولى تحريرها إذ ذاك ، وأخذهم بالكتابة وتناول الموضوعات الاجتماعية فى مصر ؛ فتلاميذ لطفى السيد يعتبرون بحق (الطبقة الثانية) من دعاة الفكر الحر بمصر ؛ وكانت الطبقة الأولى جمال الدين الأفغانى وتلاميذه .

لذلك نشأ الدكتور طه حرّ النفس فى أقصى حدود الحرية فى الأزهر وخارج الأزهر . فتألّف من كل ذلك مزيج من الميول وقوة النفس التى لا تبالى صروف الأيام وتنكّر الحوادث . على أن للحرية المطلقة والجرى فى تيارها كالقطار الذى لا يلوى على محاطّ ثمنا غاليا يفقده المرء من نفسه وماله ؛ فتعلمه الظروف أن المحاطّ لم تنشأ إلا للوقوف عندها والتريّث والتزوّد بالماء والاستعداد لكل الظروف المفاجئة . فكان شأن الزمن مع الدكتور طه كذلك .

جاء من أوربا واشتغل بالتدريس فى الجامعة ، والكتابة فى جريدة السياسة وكان المحيط الذى يجول فيه فى غدوه ورواحه هو بيئة جريدة السياسة وهم ليسوا إلا تلاميذ لطفى السيد القدماء على وجه التقريب . جاء من أوربا وفى جيبه قذائف من نيران الحرية المطلقة فى العلم والأدب والسياسة والاجتماع ، وغفل بحسن نية عن كثير من الظروف ؛ وكانت الحادثة الواحدة من الحوادث التى اعترضته كافية للقضاء عليه وعلى عشرات من أمثاله فتجلد لها واستفاد منها فخرجته بطلا صنديداً فى غير تهور ، وعالما عظيما فى حكمة وبصيرة ، وأستاذاً ماهراً فى حسن تصرف وقوة منطق .

وها هو ذا يملأ الأسماع فى الجامعة بمحاضراته وفى غير الجامعة ؛ وإذ برنّ صوته الموسيقى فى أجواز الفضاء فينقله الأثير إلى المذياع فيسمعه كل مشغوف بالعلم والأدب فى مصر وغير مصر ، فتكون الدقائق التى نسمع بحوثه فيها أمتع الأوقات النفوس ، أو نقرأ رسائله فى الصحف فتكون خير غذاء للعقول ، وصار له فى عالم البحث والأدب ذكر خالد على الأيام .